

أسلحة النصر

أيها الإخوان الكرام :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته في كل حركة وسكون وفي كل طرفة عين .
فإنه لو لا رحمة الله التي وسعت كل شيء لما كنا . ولما كان وجود ولا موجود . ولا
دال عليه . ولا مرشد إليه . فالحمد لله الذي أكرمنا بنعمة الإسلام فاختار لنا
الإيمان الذي نحن عليه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .
بسم الله والحمد لله . ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم .

أيها الإخوة الكرام أقول لكم ولنفسى ولمن يريد أن يعلم الحق من ربه : إن
الهداية إليه سبحانه بيد الله وحده . مالك الملك ذي الجلال والإكرام . أشهد أن
لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ ، إخواني لو كانت الهداية بيد
الإنسان لما اهتدى إليه أحد . ولو كانت بمجرد العلم والعقل لما عرفه أحد .
ولذلك أرسل الرسل إلى الناس صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . والناس إذ
أرسل إليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم آمنا ، وإما أن لا يقول آمنا
بل يستمر على عمل السيئات . فمن قال آمنا امتحنه الرب عز وجل وابتلاه ،
وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب . ومن لم يقل آمنا فلا يحسب
أنه يسبق الرب في التجربة . فإن أحدا لن يعجز الله تعالى فهذه سته .
إخواني :

لقد أكرمنا الله تعالى بالإيمان — فضلا منه ورحمة — فالتخلف عن سلوك
الطريق الموصلة إليه إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزيمة . فالطلب لقاح
الإيمان . فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمر العمل الصالح . وصحة الاقتداء
بالرسول صلوات الله وسلامه عليه لقاح الإخلاص فإذا اجتمعا أثمر قبول العمل
والاعتداد به . وقد علمت إخواني : أن طالب الوصول إلى الله والدار الآخرة

يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً . حاكماً على وهمه . غير مقهور تحت سلطان تخيله . زاهداً في كل ما سوى مطلوبه ، عاشقاً لما توجه إليه ، عارفاً بطريق الوصول إليه . والطرق القواطع عنه ، كثير السكون ، دائم التفكير ، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ، ولا عزل عازل .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ فالناس منذ خلقوا لم يزلوا مسافرين . وليس لهم حظ من رحلهم إلا في الجنة أو النار . والعامل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الأخطار ، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة ، وإنما ذلك بعد انتهاء السفر . ومن العلم أن كل وطأة قدم أو كل أنة من أنات السفر غير واقفة . ولا المكلف واقف . وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون عليها المسافر من تهيئة الزاد الموصّل . وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير ؛ وخير الزاد التقوى . قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فالله سبحانه هو هدف المؤمن ومبتغاه . واعلموا إخواني أن رباً ذا إرادة أمر عبداً ذا إرادة . فإن وفقه وأراد من نفسه أن يعينه ويلهمه فعَلَ ما أمره به خالقه ؛ وإن خذله خلاه وإرادته ونفسه ، وهو من هذه الحيثية لا يختار إلا ما تهواه نفسه وطبعه فهو من حيث هو إنسان لا يريد إلا ذلك . ولذلك ذمه الله في كتابه من هذه الحيثية . ولم يمدحه إلا بأمر زائد على تلك الحيثية وهو كونه مسلماً ومؤمناً وصابراً ومحسناً ، وشكوراً ، وتقياً ، وبراً ، وعدلاً ؛ وهذا أمر زائد على مجرد كونه إنساناً وإرادته صالحة . ولكن لا يكفي مجرد صلاحيتها إن لم تؤيد هذه الصلاحية بقدر زائد على ذلك وهو التوفيق ، كما أنه لا يكفي في الرؤية مجرد صلاحية العين للإدراك إن لم يحصل سبب آخر من النور المنفصل عنها ، ومن هنا نعلم يقيناً سر الاقتداء برسول الله في جميع التصرفات . ولذا وصفه الحق تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ ... وَسِرَاجاً مُّنِيرًا ﴾ من حيث هو ظاهر في نفسه مظهر لغيره . صلوات الله وسلامه عليه . فالحمد لله الذي أكرمنا بالإيمان به ولذا كان الخلق جميعاً من أشد المحتاجين إليه — عليه الصلاة والسلام — في دنياهم وآخرتهم فاحتياجهم إليه في الدنيا أشد من احتياجهم للطعام والشراب والنفس . وأما حاجتهم إليه في

الآخرة : لأنهم سيستشفعون به كى يريحهم من هول الموقف بعد أن يتأخر الأنبياء جميعا عن الشفاعة ؛ حيثذ يتشفع الرسول ﷺ فيشفع له ، وهو الذى يستفتح لهم باب الجنة كما ورد فى الأثر ، ومن أجل هذا نستطيع أن ندرك معنى قول الرسول ﷺ « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ ... » الحديث أو كما قال .

وقد علمت أيها الإخوة : أن المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة . فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إلى الله ، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره ، وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ، فالنية تفرد له الطريق ، والهمة تفرد له المطلوب فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول إلى غايته ، وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى ، وإذا كانت النية غير صحيحة كانت الطريق غير موصلة إليه قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ .. ﴾ الآيات . وقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. ﴾ الآيات فمدار الشأن على همة العبد ونيته . وهما مطلوبه وطريقه . ولا يتم ذلك إلا بترك الأغيار ومجاهدة النفس . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فالحمد لله والشكر له .

وإذا عرف هذا فالصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان : قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها . وإن لم يكونوا خالين من أصلها ؛ لكن همهم مصروفة إلى الاستكثار من الأعمال . وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكوفها على الله وحده ، وحفظ الخواطر والإرادات معه وجعلوا قوة تعبدتهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة ، والخوف والرجاء والتوكل والإيمان والرضا بقضاء الله وقدره شكرا وصبرا . فإن أكمل الهدى هدى رسول الله ﷺ وقد أمر الله سبحانه عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم .

وحقائق الإيمان على بواطنهم ولا يقبل واحد منهم إلا بصاحبه وقرينه : الإسلام علانية . والإيمان في القلب فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة ليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطنى . وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت . قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فمن قام بظواهر الإسلام كما هو شأننا وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم ينجه ذلك من النار . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّىٰ مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٌ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّيٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بفضلہ ورحمته ، وإنعامه وإحسانه إليهم ، وبره بهم . قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ فالهدى منعه من الضلال ، والرحمة منعه من الشقاء . وهذا هو الذى ذكره الله في أول السورة — سورة طه — ﴿ طه ﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ فجمع بين إنزال القرآن عليه ونفى الشقاء عنه كما قال في آخر السورة في حق اتباعه ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ فالهدى والفضل والنعمة والرحمة متلازمات لا ينفك بعضها عن بعض . كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك بعضهما عن بعض . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ وقد تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال . فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضى الهدى اقتضاء السبب لمسيبه ، والمؤثر لأثره . وكذلك الضلال وأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازداد منها ازداد هدى . وأعمال الفجور بالضد . وذلك أن الله تبارك وتعالى يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح . ويبغض أعمال الفجور فيجازى عليها بالضلال والشقاء ؛ فإنه البرّ ويحب أهل البرّ فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البرّ ، ويبغض أهل الفجور فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور . والله المستعان : وهو وليّ التوفيق .
والسلام عليكم ورحمة الله .